عن ابن عبَّاس ﷺ قال:

١ (بُعِثَ رسولُ الله ﷺ لأربعين سنةً،

٢ فمكثَ بمكةَ ثلاثَ عشْرةَ سنةً يُوحَى إليه،

٣ ثم أُمِر بالهجرةِ فهاجر عشْرَ سنين،

٤ ومات وهو ابنُ ثلاثٍ وستينَ سنةً)[٩٨].

(٩٨) البخاريُّ (٣٨٥١) واللفظ له، ومسلمٌ (٢٣٥١).

آيات

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥]

الراوي

هو: أبو العبَّاس، عبدُ الله بنُ عبَّاسِ بنِ عبد المطَّلِب، القُرَشيُّ، الهاشميُّ، المَدَنيُّ، وُلد بشِعب بني هاشم قبل الهجرة بثلاثِ سنين، وهو ﷺ حَبر الأمَّة وتُرجمان القرآن، ابنُ عمِّ رسول الله ﷺ، وكان يُقال له: البَحر؛ لكثرة عِلمِه؛ فقد دعا له النبيُّ ﷺ بقوله: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»[١]، وهو من الصحابة المُكْثِرين من رواية الحديث، روى (١٦٩٦) حديثًا، أسلم صغيرًا، ولازَم النبيَّ ﷺ بعد الفتح وروى عنه، وكُفَّ بصرُه في آخِرِ عُمُره، وتُوفِّيَ بالطائف سنةَ (٦٨هـ)[٢].

خلاصة

أخبر ابن عباس ﷺ عن بعض مراحل حياة النبي ﷺ؛ فأخبر أنه بُعث وهو ابن أربعين سنة، وهاجر من مكة إلى يثرب بعد ثلاث عشرة سنة، فأقام في المدينة عشر سنين، ثم انتقل ﷺ إلى جوار ربه جلَّ وعلا وهو ابن ثلاثٍ وستين سنة.

(١) البخاريُّ (١٤٣) واللفظ له، ومسلمٌ (٢٤٧٧).

(٢) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٣/ ١٦٩٩)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البرِّ (٣/ ٩٣٣)، «أُسد الغابة» لابن الأثير (٣/ ٢٩١).

١ الإسلام قائمٌ على شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، والتعرُّف على الرسول ﷺ معينٌ على حسن الإيمان به، كيف لا وهو أكمل الناس وأكثرهم فضلًا علينا..، وفي هذا الحديث يُخبر ابنُ عبَّاس ﷺ بأهم المراحل التي مرَّ بها رسولُ الله ﷺ في حياته، فيَذكر:

١ أن رسولَ الله ﷺ نزل عليه جبريلُ عليه السلامُ بالوحي، وأمرَه بالبلاغ بعد بلوغه ﷺ سِنَّ الأربعين، أي أنه ولد في سنة ٥٣ قبل الهجرة، وكان يسمى عام الفيل، وبعث سنة ١٣ قبل الهجرة.

وقد اختار الله مكةَ لتكون مولدَ رسوله ﷺ ومكانَ نشأته، بها وُلِد ﷺ من نسَبٍ شريفٍ؛ فأبوه عبد الله بن عبد المطَّلب الهاشميُّ القرشيُّ، وأمَّه آمنةُ بنتُ عبد منافِ بنِ زُهْرةَ القرشية[٩٩]، فكان أشرف العرب نسَبًا، قال ﷺ: «إن اللهَ اصطفى كِنانةَ من ولدِ إسماعيل، واصطفى قريشًا من كِنانة، واصطفى من قُريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[١٠٠]، ومات والدُه وهو حملٌ في بطن أمِّه، فوُلِد ﷺ يتيمًا، ونشأ في كَنَف أمِّه، ثم تُوفِّيت أمُّه وهو ابنُ ستِّ سنين، فاستمر في كفالة جدِّه، ثم توفي وهو ﷺ في الثامنة من عمره، فكفَله عمُّه أبو طالب[١٠١].

وظلَّ ﷺ بمكة طيلةَ هذه السنوات الأربعين يربِّيه الله - عزَّ وجلَّ - ويُعِدُّه إعدادًا يَليق بمَهمَّته التي اصطفاه الله لها؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]، فعاش مع قومه طيِّب المعشر حَسَن الخُلق، مشاركًا لهم في كل نافع، ومبتعدًا عن كل قبيح.

وقد تزوَّج النبيُّ ﷺ من خديجةَ بنتِ خُوَيْلِدٍ ورزَقه الله منها كلَّ أبنائه وهم: القاسم، وعبد الله، وزينب، ورُقَيَّة، وأمُّ كلثوم، وفاطمة -سوى إبراهيم؛ الذي جاءه في المدينة من مارية القبطية-[١٠٢]، ثم نزل عليه جبريل عليه السلام وهو في غار حراء، وأنزل عليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥]، فقام بأعباء النبوة.

---

(٩٩) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١١٠).

(١٠٠) مسلمٌ (٢٢٧٦)، عن واثلة بن الأسقع ﷺ.

(١٠١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٦٨: ١٧٩).

(١٠٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٨٧).

٢ وبعد أن نزل الوحيُ على رسول الله ﷺ **أقام** بمكة ثلاثَ عشْرةَ سنةً يُوحى إليه، ويدعو الناس بالوحي، ولاقى فيها من الإيذاء والتكذيب ما لا يتحمَّله أحدٌ، وأوذي مَن آمن معه، ولما اشتدَّ الإيذاء أمَرَهم بالهجرة إلى الحبشة في العام الخامس من البَعثة فاهجروا أكثر من مرة[١٠٣]. وظلَّ ﷺ بمكةَ يدعو، وقيَّض الله له عمَّه أبا طالب وزوجَه أمَّ المؤمنين خديجةَ يساندانه، حتى كان العام العاشر من البعثة، فماتا، وبحث عمن ينصر دينه في الطائف وفي مواسم الحجِّ وغيرها فكان يُؤذى[١٠٤].

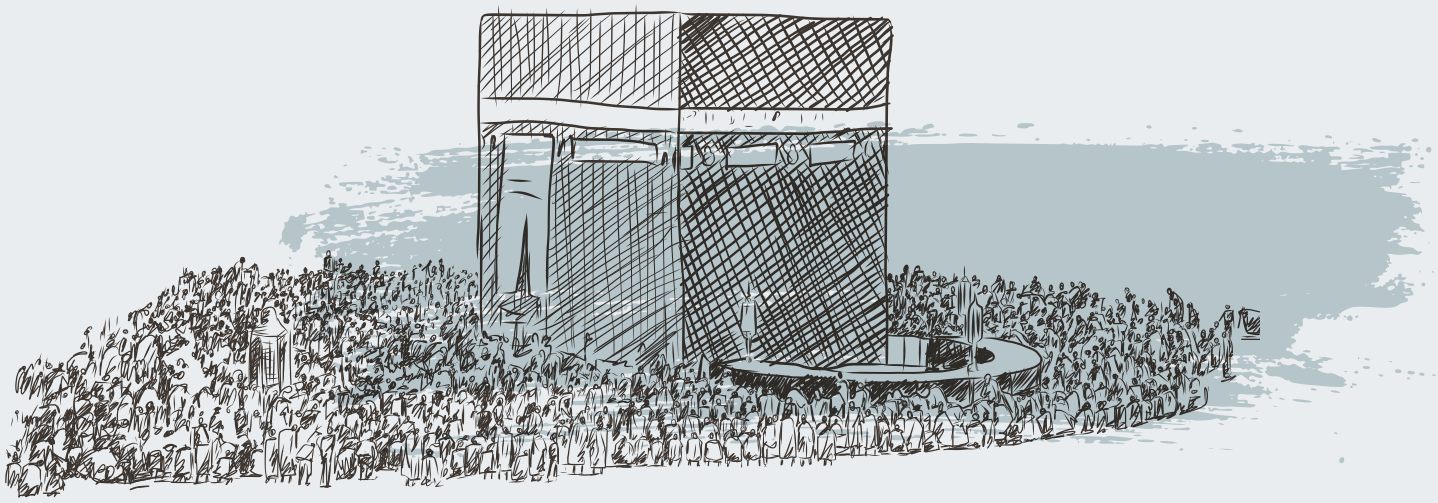

٣ وبعد أن أكمل ﷺ بمكة ثلاثَ عشْرةَ سنةً، اختار له المدينة دارًا لهجرته، فهاجر ﷺ إلى المدينة يُرافقه أبو بكر ﷺ، بعد أن سبقه بعض أصحابه إلى هناك، ولحقه الباقون -ممن استطاع الهجرة- فيما بعدُ، فاستمر في المدينة يقوم بالدعوة والجهاد ومصالح الناس عشر سنين، حتى أتمَّ اللهُ النعمةَ، ودخل الناسُ في دين الله أفواجًا.

٤ ثم أخبر ابنُ عباس ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ مات وهو ابن ثلاثٍ وستين سنة، بعد ثلاثة وعشرين عامًا من الدعوة، ثلاثة عشر منها في مكة، وعشرة في المدينة. وكانت وفاته في حجرة عائشة ﷺ، يومَ الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول في السنة الحادية عشرة من الهجرة على صاحبها الصلاة والسلام.

---

(١٠٣) انظر: «السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث» (ص ١٩١).

(١٠٤) انظر: «السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث» (ص ٢٠٧).

التّتبّع

١ ثق بربوبية الله تعالى ورحمته، واطلب عونه، فقد وُلد ﷺ يتيم الأب، ثم ماتت أمه وجده وهو طفل، فكفله عمه على فقره وكثرة أولاده، والعادة في مثل هذا اليتيم أن ينشأ محطمًا ناقص الرعاية، لكنَّ الله سبحانه بيده مقادير الأمور، فجعل من هذا اليتيم بعد سنين وسنين سيدًا للعالمين. فلا يقنط الإنسان من رحمة الله مهما ضاقت الظروف، وليثق أنَّ له ربًّا يدبر الأمر، يقول للشيء: كن، فيكون.

٢ ظلَّ النبيُّ ﷺ ثلاثة عشر سنة يدعو الناس في مكة، يخرج إلى الأسواق واجتماعات الناس ليدعوَهم، لا يكلُّ، ولا يمَلُّ، ولا ييأس من إيمان قومه، ولا يعبأ بتكذيبهم واتهامهم له، رفيقًا في قوله ولسانه، رحيمًا بقومه، يدعو الله لهم بالهداية، ويعين على مصالح الناس من حفظ الأمانات وغيرها، ولم يجزع لموت عمه الذي كان يحميه من أذى قومه، ولا انكسر بموت زوجه وحبيبته خديجة التي ناصرته وأيَّدته في دين الله بنفسها ومالها، أفلا يكون ﷺ أسوةً للدعاة وطلبة العلم والوُعَّاظ في سبيل الصبر على الدعوة واحتمال أذى الناس وهم لم يلاقوا بعض ما لاقى؟!

٣ لمَّا جاء أمرُ الله لنبيه ﷺ بالهجرة لم يحزن لترك الأهل والمال والدار والوطن، وإنما امتثل أمرَ الله تعالى مع مشقته على نفسه. وهذا حال المؤمن؛ يهون عليه ما يلقى لأجل مرضاة الله تعالى.

٤ في الهجرة سعة، ولا يلزم من الهجرة أن تكون من بلد إلى بلد، فقد تكون من بيئة وعمل إلى بيئة وعمل آخر أكثر رضا لله تعالى.

٥ مرَّت حياةُ رسول الله ﷺ بمراحلَ متنوِّعةٍ، وظروفٍ مختلفة، ما بين اليُسر والعُسر، والشدَّة والرخاء، والحرب والسِّلم، والسِّرِّ والجهر، والاستضعاف والتمكين، فشَمِلت الحياةَ الإنسانيةَ بكلِّ حالاتها ومراحلها، وقدَّمت في ذلك النَّمُوذجَ الكامل في التأسِّي والاقتداء، وتقبل قدر الله تعالى على كل حال.

٦ لا بد من الموت ولو كان لأشرف الخلق، وأكملهم قوة، وعقلاً، وحماية لصحته مما يفسدها، ودعوة لربه بالعفو والعافية، ونفعًا للناس، ﷺ، فلا ينبغي أن يغفل العاقل عن الموت، أو يتناساه من حسابه، أو يجزع لموت قريب أو حبيب، أو عالم، أو مصلح.

قال الشاعر:

وُلِـدَ الْيَتِيـمُ فَعَـزَّ وَصْفًـا فِي الْـوَرَى ... فَلْيَفْخَـرِ الْمِسْـكِينُ وَالْأَيْتَـامُ
كَالْفَجْـرِ يَخْـرُجُ مِـنْ ظَـلَامٍ دَامِـسٍ ... كَالـرُّوحِ تُحْيِـي الْمَيْـتَ وَهْـوَ رِمَـامُ
مَـا أَسْـعَدَ الدُّنْيَـا تَعَاظَـمَ فَرْحُهَـا! ... سَـيَظَلُّ يَغْشَـى وَجْهَهَـا الْإِسْـلَامُ

قال حسان بن ثابت[١٠٥]:

قَومـي الَّذيـنَ هُـمُ آوَوا نَبِيَّهُـمُ ... وَصَدَّقـوهُ وَأَهـلُ الأَرضِ كُفّـارُ
إِلّا خَصائِـصَ أَقـوامٍ هُـمُ سَـلَفٌ ... لِلصالِحِـينَ مَـعَ الأَنصـارِ أَنصـارُ
مُسـتَبشِرينَ بِقَسـمِ اللهِ قَولُهُـمُ ... لَمّـا أَتاهُـم كَريـمُ الأَصـلِ مُختـارُ
أَهـلًا وَسَـهلًا فَفـي أَمـنٍ وَفي سِـعَةٍ ... نِعـمَ النَبـيُّ وَنِعـمَ القَسـمُ وَالجـارُ
فَأَنزَلـوهُ بِـدارٍ لا يَخـافُ بِهـا ... مَـن كانَ جارَهُـمُ دارًا هِـيَ الـدارُ

(١٠٥) سيرة ابن هشام (١/ ٦٦٤).